كتاباتٌ من غزّة (إطلالة)

هذا ليس ملفّاً.

إنه مجرّد إطلالة شبه سريعةٍ على نتاج بعض الشباب في قطاع غزّة المحاصر، أتاحها لـ الآداب الصديق ماجد كيّالي. وقد يكون أفضلَ ما نقدّم به هذه الإطلالةَ هو نصّ قصير لمحمود ماضي، بعنوان «معنى أن تكتب في غزة»:

«أن تكتبَ يعني أنكَ تعيش. وأن تكتبَ في غزّة يعني أنّكَ تصرّ على العيش.

هذا ليس مدخلاً يستعطفُ الآخر، ولا يعكسُ قوّةَ الشباب في فلسطين. هو يقول: إنّهم أحياء، ويكتبون، ويرقصون، ويفعلون ما يستطيعون لتكون حياتُهم مرنةً، ويكونَ الواحدُ فيهم قادرًا على التجاوز والاختلاف والألم. أوليست الكتابة إلاّ ردّ فعلٍ على واقعٍ معيش؟

معظمُ أبناءِ جيلي (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥) وُلدوا دونَ موجِّهٍ حقيقيّ. فالحراكُ الثوريّ بلغ أوجَه في الخمسينيّات والستينيّات، حين ظهرتْ تيّاراتٌ فكريّة ثوريّة قادت إلى حركةِ كفاح مسلّح شبهِ منظّمة وشبهِ ناجحة. لكننا وُلدنا وأكثرُ معاركِ منظمة التحرير قد خبا دخانُها، ومعظمُ الحراك الفكريّ التنظيريّ قد خفَّ صوتُه.

وُلدنا من دون دُور نشرٍ حقيقيّة.

وُلدنا من دون جدلٍ يحتكم إلى الحوار؛ فقد كان رصاصُ النزاع الفلسطينيّ الداخليّ هو الصوت الأكثر ضجيجًا من حولنا.

إنها تجربةُ جيلٍ بأكمله، بلا مجلةٍ ثقافيّةٍ جادّة، بلا ملحق **دفاتر ثقافيّة**، بلا برامج ثقافيّة جادّة على التلفزيون، بلا ورش عملٍ وسفرٍ واحتكاكٍ بالآخر. بلا شيء.

وُلدنا من دون مثقف عضويّ يلعبُ دورًا مهمّاً في تطوير المؤسّسات الثقافيّة الفلسطينيّة ونقدها. وحين كبرنا وجدنا أبوابَ اتحاد الكتّاب مغلقة، ولا أحد منا يعرف اسمَ وزير الثقافة في الحكومتين الشرعيّتين.

وُلدنا من دون كهرباء.

لكنّ هذا الجيل استطاع الكتابةَ، لا ليعيشَ فقط، بل ليصرخَ أيضًا.»

غزّة، ٢٠١١

إلى سبعة مسكّنات... إلى سبعة أحلام

▫ أسعد الصفطاوي

(مناجاة إلى رفاقه في فترة توقيفه شهرين من قبل حركة حماس إثر التحرك الشبابيّ في آذار ٢٠١١)

كانت الجولةُ الأخيرةُ التي قطّرتنا جميعًا، فصرنا موؤودين من المدن، وحُفاةً من الأرض، وعُراةً من الفرح، متعبةً جداً. وها أنا الآن، بعد انتهاء هذه الجولة، آتي لأقصَّ حكاياتكم، لأروي عطشي إلى الكتابة.

كنتُ أعرفُ أنني سآتي اليومَ لأكتبَ ما أكتب، من غير أن أعرفَ ما سأكتب. وكنتُ، وأنا أضع عنوانَ هذه التدوينة، أعدُّكم واحدًا واحدًا. كنتم إلى جانبي، وكنتُ إلى جانبكم، في الشهرين اللذين انقضيا وكانا من أصعب الأوقات التي مررتُ بها. كنتُ تائهًا بينَ الفشل والنجاح، بين كميّة الإشاعات الهائلة التي أحاطتني/نا، بين كميّة الترديّ التي ولّدها لديَّ جهازُ الأمن الداخليّ التابع لحكومة «حماس» في غزّة، بين كميّة الملل والبحث عن عمل، قلّة المال والحال، وقلّة المكيال والمقدار، بين كمّية الأشياء التي تولّدها هذه المدينةُ اللعينةُ التي أحبّها والتي أشعرُ بإصابةٍ بالغة في عاداتي التي لا تستطيعُ أن تتقبّل كيف تعيشُ خارجها.

كان فيلمًا مملاً جداً، يخلو من أيّ نوع من الدراما أو التكنيك المختلف. كنّا مُخدَّرين، ولا نقوى على فعلِ أيّ شيء. وكانت كلُّ محاولات الانتشال تبدو باهتةً وسرعان ما تتلاشى مع عنصر المدينة القاتلة التي تسكُننا اليوم. وأشعرُ بأنني بتُّ قادرًا على كتابةِ ما أكتبه الآن؛ فأنا لا زلتُ على قيد الحُبّ، على قيد الأمل، على قيدِ الحياة.

اليومَ، إذ أنظرُ إليكم من حولي وأنتم تَتُكّونَ الرملَ من بين أصابعكم، وتفركون الوقتَ بين سبّابتكم وإبهامكم؛ اليومَ، وأنا أراكم تنظرون إلى أنفسكم في المرايا، بعد أن حاول الكثيرونَ تحطيمَ مراياكم؛ أدشّنُ هذا الصرحَ المكتوبَ هنا كي يُذكّرني بأنكم لم تتخلّوْا عني، ولم نتخلّ عن أنفسنا، ولم أتخلّ عنكم، في الوقت الذي رحل عنّا الكثيرون، لأنّ ايمانًا لا يُحرّكهم ــ وأنا أعرفُ جيّدًا أنّ الذي يدفعُكم دومًا إلى الحياة إيمانٌ: أنتم تزرعونهُ، أنتم تَسْقونه، وأنتم تراقبونه يكبُر، وأنتم تقطفونه.

أنتم الايمانُ الذي أمتلكُ إلى الآن، ولا أعرف كيف كانت ستبدو الحياة من دونكم بعد أن خرجتُ من السجن في الفترة التي ولّت. كنّا نُطبطبُ على ظهورنا، ونُسنّد أنفسنا للقيام عند خروجِ أيّ منّا من المعتقل، وبعدَ أن ابتعدَ الكثيرون، بعد أن ابتعدَ مَنْ كنّا نعتقدُ أنهم قريبون جداً.

«هؤلاء الذين أكتبُهم كانوا معي يومًا بيوم، لحظةً بلحظة، في الشهرين اللذين انقضيا. لذلك أكتبُهم هنا.»

■ **فادي الشيخ يوسف**. لا دخلَ لي بأيّ ترتيبٍ هنا، والأشياءُ تأتي جُزافًا. أنا لا أمتلك صفةَ الكاتب فقط هنا، أو المُرتّب، لكنّكَ تبدو الآن أوّل الذين أكتبهم. يا أيّها «الماسونيّ» الذكيّ، كيف تستطيع السيطرةَ على هذا الهدوء كلّه؟ كيف تسكُتُ كثيرًا؟ كيف تَعْقدُ حاجبيكَ وترتمي في عقلِكَ وتبقى قريبًا بعيدًا حزينًا ساكنًا؟ كيف استطعتَ أن تُمسكَ بالعصا من وسطها، ومن يمينها ويسارها؟ كيف لم تفقدْ أملاً يرجو منك أن تفقدَه؟ كيف كنتَ دائمًا ضميري الغريب الذي كان مرآةً لي بلا أيّ ارادةٍ منّي؟ أنا مكشوفٌ كثيرًا مثلاً ولا أستطيعُ أن أجعلَ من نفسي داهيةً، أو شخصيّةً جدليّة؟ أهكذا كُنتَ دائمًا توضّبُني في حقيبتك الثقيلةِ ــ ذلك القلبِ الغريبِ؟ غريبٌ أنت يا رجل... غريب.

■ **محمد عنتر**. وأنتَ المغموسُ بالقلب مثلَ يرقةٍ شقيّة تحاول التشقّقَ إلى الحياة. أيّها الملعونُ بحبّي وحُبِّ من أحبّني. أيّها المسكونُ بالدفء. يا بالي وترياقي. يا داءً أُصبتُ به. يا دواءً لشقائي. يا رفيقَ المدينة وشوارعها. يا غريبَ الأزقّةِ وحواريها. يا فقيرًا من بُعدي، يا غنيّاً بقلبي. من أينَ لكَ كلّ هذا الشِعر يا ولد؟ من أنت، ها؟ من أين جئتَ إليّ؟ كيف استطعتَ أيّها السريعُ المُطيعُ الكريمُ، الحضنُ الثريّ، المُنتقدُ الناقدُ، المُتّقدُ حياةً، المنزوعُ شقاءً؟

يا ابن البلد يا با، أنا بحبّك.

■ **محمد الشيخ يوسف**. أنت. أنتَ وحدكَ، وحدكَ لا سواكَ، أمنحُكَ وسامَ أبي وأخي وابني وسيّدي وصديقي ورفيقي. أنت وحدكَ تعلمُ كيف أُحبُّك، لا كم أُحبُك. أنت الضميرُ السابقُ لأوانه، الكَتفُ التي أستندُ إليها، الحضنُ الذي أنامُ فيه، اللونُ الذي أفضّله، وجبةُ الطعام اللذيذة التي تُمنحُ للمساجين كلّ ٣٠ يومًا. أنت أُقصوصةُ السماء، رائحةُ الملائكة، غريبُ المدينةِ والحكاية، شقيّ الذاكرةِ والكناية.

أنتَ حدّوتي لأمّي وهي تجلو الصحون، فكيف لا أكونُ خائفًا من بُعدك؟ وأنا الأنانيُّ بكَ، فسامحْني.

■ **محمود المنيراوي**. ااااااااااااه... أنا الآن أضحك. أضحكُ أضحك. أشعرُ بثعلبةِ الأشياء معك. أشعرُ كما لو أنّنا معًا نفهمُ كلّ شيء، وأيَّ شيء، نحن الممنوعون من محاولة الكذب على أنفسنا لأننا نعرفُنا جيّدًا. أنت أيها العليلُ الذي منحني إيّاه اللهُ في أول سفرٍ لي في حياتي. أنت منفضةُ الشِعرِ لي. أنتَ العقلُ الغريبُ المُغبرُّ بوجهي بالمرآة: كلّما نظرتُ إليكَ رأيتُني، وكلّما نظرتُكَ بسطتُ يديَّ أقصى يميني ويساري، وأخذتُكَ في حُضني. أنتَ الذي يشكّل كلّ جدلي، وكلّ غرابتي. أنتَ مكواتي السحريّة التي أكوي بها أفكاري عندك. أنتَ يا أيها الذكيّ، ستكونُ شيئًا من اثنين: إما فسادًا عظيمًا لهذا العالم، وإما حدثًا جليّاً أصابهُ الله بهذه السنوات العجافِ التي طالت.

■ **أحمد بعلوشة**. أتعْلم؟ أحيانًا عندما تمرُّ في عقلي مرّاً عابرًا، أشعرُ أني سأتبعُكَ، مثلَ قطّةٍ أسندتْ خوفها إلى ظلّ رجلٍ يمشي في الليل كي يُؤنسها. أنتَ مُؤنسي، الذي يُسقطُ عليّ راحةَ القلبِ والبال. الصاحبُ المُرادُ من هذه الحياة. الرجلُ الذي أجلسُ الآن معه بعدَ عشرين عامًا من الآن وهو يصيبني بالضحكِ الشديد، ونحنُ نقرأُ هذا النصّ، ونمرُّ على هذه الفقرة، ونساؤها المشغولات بتحضيرِ وجبة العشاء يتحدّثنَ عن ضجرهنّ منّا: كيف أنّنا نقضي الكثيرَ من الوقت معًا، ويُحضّرن المكائدَ التي تجعلنا على الأقل نختلف. لكنهنّ لا يعلمْنَ أبدًا أنني منحتُكَ من هذه اللحظة شرفَ دفني، وأعرفُ أنكَ ستمنحُني شرفَ الشقّة المُقابلة لشقّتِكَ بعد عشرين عامًا من الآن :)

■ **أنور الشيخ يوسف**. شوفْ، قبل أن أتحدّثَكَ هنا، اعلمْ دائمًا وأبدًا أنني أُحبُّكَ جداً، وأعتزُّ بكَ أكثرَ من اعتزاز أبٍ بابنه، أو أخٍ بأخيه. أنتَ تعرفُ كيف أراكَ نقيّاً حقيقيّاً، كيفَ أنني مُتيقّنٌ أنكَ ستعملُ مديرًا يرتدي بذلةً سوداء و«غْرافة» زرقاء، وتُمسك بيدك اليُمنى حقيبتَكَ المقفولة برقمٍ سريّ هو ٢٥٨٠٨، وتغمزُ الصبايا اللواتي يعملنَ في البنكِ الذي تديره، وتجلسُ على مكتبكَ الفاره، وتفتح حاسوبَكَ وتقرأ هذا الذي أكتبه الآن وتقول: «يا تافه يا صفطاوي، والله طلعت صادق.»

■ **حسام خضرة**. أنت... أنتَ أسوأ عِقاب قد يُمنح لشخصٍ روتينيّ. أنت غريبُ الأطوار، فطِنُ اللسان، عصيُّ الدمع، بليغُ الأحكام. أنتَ صاحبي «المسخرجي» الذي أخافَ الحكومات، ومَنْ سأنفيهِ إلى بلادٍ لا يَعْلمها إلا اللهُ وأنا، إذا صارت لي حكومةٌ يومًا في دولتنا. أنت اليدُ الممدودةُ إلى المساكين، الذي لا يستطيع النومَ وسواه لا يعرفُ النومَ من فقره. أنت القضيّةُ التي ترتدي كلَّ مظلوم في هذه المدينة. أنتَ حكمةٌ غابت عن الآلهة المُدّعاة، الساقطةِ من الكُتبِ البشريّة. أنتَ سرُّ الماءِ في نصف البنطال الذي ترتديه. ستتعب، لكنّك ستموتُ راضيًا أنك أطعمتَ مسكينًا، ورفعتَ الظلمَ عن امراةٍ، وخفقتَ القلبَ لمُنتحرٍ.

❖ ❖ ❖

أعرفُ أنكم لستم بسطاءَ، ولستم مثلَ أيّ أحد. وأعرفُ أنكم أعظمُ مجموعةٍ عملتُ معها يومًا. وإذا أراد يومًا بلدٌ ما أن يستضيفكم فيها، فليَعلمْ أنّ خرابًا ما سيحلّ... أو إعمارًا عظيمًا!

تصبحونَ على غدٍ يا أصحابي :)

غزّة، ٢٠١١

في الكتاب، بعد الكتابة، وقبل الحبّ

حنين جمعة

لماذا لا نرتكب هذا الآن؟!

هنا، في هذا النصّ بالذات، يراقبنا البياضُ وقد ازدحمتْ سطورُه بالأعين التي تُغْلقها النشوةُ ويَفْتحها الذهولُ.

(١) جنونٌ، كهذا، شهيٌّ في الكتابة، بعد الكتابة، وقبل الحبّ.

(٢) إذا وصلتَ فلا تطرقِ البابَ. تنفّسْ أمام عتبته. نادِني. غنِّ. أَطْلقْ صفيرًا خفيفًا كطقسٍ احتفاليّ تقتله التحيّةُ، وأزدرهِ.

(٣) أنت قادمٌ من امرأةٍ قديمة. أرى هذا. وأراها تضع قفّازًا قبيحًا، لا يلائم وردةً تنبت في شعرها. عطرُها ضئيلٌ كعشبٍ جافّ. خطوتُها قلقة، لطالما أفسدتْ نزهةَ روحِك في العناصر. أما صوتها، فقليل.

(٤) نسيتَ حقيبتكَ، مفتاحكَ، دفترَ مواعيدكَ في بيتها، تمامًا كما تركتُ قلبي في قصيدته.

(٥) لستَ متعبًا. ولا أنا. كلانا أحمقُ يشعر بالبرد.

(٦) قبل ليلةٍ وحلم، قذفتُ السريرَ في غرفة الذكريات. محوتُ النوافذَ. أرسلتُ الستائرَ إلى البحر. «ديْن قديم قد حان.»

(٧) أتركُ الباب مواربًا، فقط، كي لا أعيش كثيرًا.

(٨) مررتَ في صوتي قديمًا، والآن يحاول الهواءُ المرورَ بيننا. هذا يشبه عزفًا أزرق.

(٩) الخطوة موجة. الخطوتان هدير. وما تبقّى بحرٌ صغيرٌ نرتديه، شرط أن لا تخلعَ روحُنا روحَها.

(١٠) لماذا تشهق اسمي بطيئًا حزينًا؟ أأنت مريضٌ بالحنين؟

(١١) أحتاجُ إلى يدك حول خاصرة الكأس، لأعرفَ كيف يولد الماءُ وكيف يموت.

(١٢) أتحبّ الشعر؟ أنا أفعله كلما شعرتُ بالبرد، وكلما شعرتُ بالدفء. وأنت، أتفعل هذا؟

(١٣) «أنتَ تهمل قدميّ.»

«أحاول أن أقودَ خطوتكِ، فتقودني يداكِ.»

(١٤) الجدران تشعر بالدفء. تضبط الأرضُ قلبَها، ونبحث عن عرقٍ لا يسرقه الهواء. لا تخلعُ قميصك. أُقلبُ أصابعي. أحملُ الألوان. سنرسم النوافذَ من جديد.

(١٥) عاديّون نحن، ولكن...

(١٦) بعد اللقاء ستغادر. ستَجْمع أنفاسَك، خطواتِك، وقميصًا مبتلاً بقوسِ قزح. ستفرغ يديك من الرمل والعصافير وتغادر. لن تقول امرأتَكَ على شفتيَّ، ولن أكتبَ على يديك قصيدتَه.

لماذا لا تحبّني؟ لماذا لا أحبّك؟

ولماذا لا نفعل هذا الآن؟!

تعال.

تعال نرقص الآن، هنا، في هذا النصّ بالذات، بينما القرّاء منهمكون في سوء ظنّهم، وبعد أن يقهقه قارئٌ عنيد.

غزّة، أيار ٢٠١١

سفر

(فصل من رواية)

□ محمود ماضي

تتأكّد من كلّ أوراقك. تنحّي الأوراقَ المهمّة: بطاقةَ هويّتكَ، جوازَ سفرك، تأشيرةَ الدخول إلى مصر، تذكرةَ الطائرة، تأشيرةَ الدخول إلى عمّان. تضعها في حقيبةٍ صغيرة، وتمنّي نفسك برحلةٍ مختلفة. تنظر إلى عين أمّك. ترتعش يدكَ. تقبّلها، وتغادرُ ــ كعادتك ــ من دون أن تنظرَ إلى الخلف. تبكي بصمت.

تصل إلى معبر رفح الحدوديّ. يدهشكَ المنظر جداً، ويؤلمكَ أكثر. كأنّ غزّة بجميع سكّانها رحلتْ إلى المعبر هذا الصباح! آلافُ البشر يسيرون في كلّ الاتجاهات، فيما الحافلاتُ التي تنقلُ المسافرين إلى داخل المعبر تمتلئ عن آخرها بالمسافرين... أو قلْ إنّ الحافلات لا تتّسعُ لشيء آخر: فأنتَ كنت تعرفُ سابقًا أنّ الحافلة الواحدة تتّسع لخمسين راكبًا فقط، لكنها الآن تتسع لثلاثمئة راكب أو يزيد!

تجاوزتَ الحافلات لأنّك تريد الوصولَ سريعًا. عند أسلاك المعبر الشائكة، وبارتفاع أربعة أمتار، قرّرتَ أن تجازفَ مثلَ الآخرين. انتظرتَ حتى يخلو المكانُ قليلاً، ثم وجدتَ يدَك ترمي بالحقيبة إلى داخل السور، ووجدتَ نفسَكَ تتسلّق الأسلاك الشائكة وتقفز، لتجد نفسَكَ داخل حدود المعبر. لم تهتمّ كثيرًا بالدم النازف من ذراعك، بل حملتَ حقيبتك، وركضتَ سريعًا حتى لا يراك الشرطيّ.

وصلتَ إلى نقطة الفحص الأولى في معبر رفح الحدوديّ، الذي يصل قطاعَ غزّة بمصر، النافذةِ الوحيدةِ التي إذا ما أُغلقتْ فذلك سيعني أنّ قطاع غزّة تحوّل إلى أكبر السجون على الإطلاق، بمساحته الضيّقة (٣٦٥ كيلومترًا)، وبأعداد سكّانه القياسيّة التي تتجاوز المليونَ ونصفَ المليون من البشر.

لكنّك وصلتَ، وتمّ التأكّدُ من صلاحيّة جواز سفرك. وبلحظات قياسيّة، وجدتَ نفسَكَ تدخل قاعةَ المسافرين، فيُختم جوازُ سفرك بختم الخروج، وتصعد إلى حافلةٍ أخرى متّجهةٍ صوب مصر.

حافلةٌ أخرى: موتٌ إضافيّ!

تتقدّم مرتبكًا. تُدخل قدمكَ إلى داخل الحافلة، فتهرب منك. يدُك اليمنى تستقرّ في مكان، وباقي جسدك في مكانٍ آخر. لا توجد أيُّ مساحة إضافيّة لأيّ راكب آخر: الكراسي ممتلئة بالمسافرين، المساحة بين الكراسي ممتلئة أيضًا، مدخل الباب، سطح الحافلة، وحتى المساحات السفليّة المخصّصة للحقائب وَجَدَها المسافرون مساحةً ممكنةً للانتقال.

ستنتظرُ قليلاً حتى تتحرّك الحافلاتُ التي تقف أمامك. ستندهش من رؤية المسافرين: فكلّما نظرتَ إلى أحدهم أغمض عينيْه، أو أشاح بوجهه بعيدًا، خجلاً أو رغبةً في عدم التواصل. قرّرتَ أن تفعل مثلهم: أغمضتَ عينيك حتى لا يراكَ أحد.

فتحتَ عينيك على بكاء في المنطقة الأماميّة. كانت سيّدةٌ تطلب إلى زوجها في المنطقة الخلفيّة من الباص أن يأخذ ابنته إلى دورة المياه، لكنه لم يستطع الوصولَ، أو تحديدًا لم يستطع أن يتحرّك خطوةً إلى الأمام. بعضهم أشار عليه بأن ينزلَ من الشبّاك، ويتقدّم إلى حيث تقف ابنتُه، ليُنزلَها من الشبّاك أيضًا، لكنه لم يستطع ذلك أيضًا. في النهاية قرّرت الطفلة أن تأخذ زمام المبادرة، وبالت داخل الحافلة.

ثمّ بكت

وبكتها أمُّها أيضًا!

...

تحرّكت الحافلة. وجدتَ نفسكَ أخيرًا في صالة المسافرين، في الجانب المصريّ من معبر رفح الحدوديّ. لكنّ الصالة، على اتساعها، كانت تشبه حافلةً أخرى: حقائب، نساء، رجال، أطفال، كلّهم يفترشون الأرضَ. تتأمّلهم، لكنّك لا تعرف إنْ جاؤوا قبلك إلى هذه الصالة، أم أنّهم جزء من تكوينها.

تتقدّم إلى الكاونتر لتسلّم جوازَ سفرك. يشير الشرطيُّ إلى مكانٍ عشوائيّ في الصالة: «اجلسْ إلى حين سماع اسمك.» تبتعد عنه، وتلُوح في ذهنكَ جملةٌ تدوّنها على هاتفك: «لو كنتَ تحبّ السفر/ انظرْ إلى سفرنا.»

تحاول البحثَ عن مكانٍ لتجلسَ فيه، لكنّك لا تجد ولو ثقبَ إبرة. تبقي حقيبتك على كتفيك. تتقدّم حذرًا من فوق الحقائب، وبعض الجثث النائمة. بكاءُ أطفال، صراخُ رجل على زوجته، حلقاتُ النسوة وحديثهنّ المستمرّ، شبابٌ يناقشون قضايا جانبيّة، فيما يتفق الجميعُ أنّ هذه الصالة عتبةُ الدخول إلى سجنٍ آخر، أو بابُ طائرة ينتظر.

الساعة الآن الثالثة عصرًا. تتحسّسُ روحكَ بيدك. تتقدَّم بجوعك نحو كافتيريا المسافرين. تأخذ ما يسدُّ حاجتك من أكلٍ ودخان، وتبتعد. عيناك تبحثان عن وجهٍ مألوف. بعد ذلك ستقتنع أنّ كلّ الوجوه مألوفةٌ لديك، ولن تحتاج سوى إلى دوران بسيط لتجد نفسك خرجتَ من دائرة ودخلتَ في دائرة أخرى، وتواصل الحديث!

كلّ لحظة يخرج شرطيٌّ ينادي أسماءَ المسافرين (المفْرَج عنهم) ودائمًا يسقط اسمُك. تقتنع أخيرًا أنّك من المغضوب عليهم، ولن تنفع معك تأشيرةُ الدخول إلى مصر، وسيتمّ ترحيلك!

تنتظر، مع آخرين، لحظةَ الترحيل. تنظر أكثر، تنتظر أعمق. سقفُ الصالة يزداد تشقّقًا. روحك تتصلّب وتشعر بها جامدةً في منتصف حلقك تمامًا. تتنحّى جانبًا لأنّك تشعر بالعطش الشديد. يدك تأبى إلا أن تأخذ سيجارةً أخرى، وتنسى الماء.

تتقدّم من أناس آخرين. تستفسر عن أسمائهم قبل اسمك. يخبرونك أنّ موعد الترحيل تمام منتصف الليل. ساعتك تشير إلى السابعة والربع مساءً. تفكّر في الساعات الخمس القادمة، وتستغرب أنّ الصالة ما تزال بكثافتها ذاتها.

هل سيُرحّل كلُّ هؤلاء؟ عددهم يتجاوز الألفيْ مسافر. أين سيوضعون؟ هل توجد حافلاتٌ لنقلهم؟ كيف سيرحّلون؟ تقرّر أخيرًا أن تطلب إذنًا من سيّدة بوضع حقيبتك قربها، حتى تكون لك أحقيّةُ دخول منطقتها والجلوس فوق الحقيبة، والنوووووووووووووووووم.

غزة، ٢٠١١

رسالة من مدينة العقلاء

□ وسام عويضة

صغيرتي الجميلة،

أعتقد أني بدوتُ أحمقَ في نظر جيراني الجالسين على الطاولة المقابلة في المقهى، وهم ثلاثةُ رجال يشربون القهوةَ ولا يجرؤون على رفع صوت مذياعٍ صغيرٍ ينساب منه صوتُ فيروز الدافئ، في العاشرةِ من صباح يومٍ غير عاديّ.

أبدو كنغمة نشاز في أوركسترا اللامبالاة التي تعزفها المدينةُ بحجارتها، ومبانيها، وسكّانها، وببحرها الذي أصبح شاهدًا على ما يحدث من غير أن يتفجّرَ مغرقًا كلَّ هذا العبث.

أجد نفسي هذا الصباح مدفوعًا إلى هذه الصفحات البيضاء التي تواجهني منذ نحو ساعتين، استهلكتُ خلالهما نصف علبةٍ من السجائر، وثلاثة أكوابٍ من القهوة، فيما أنا أفكرّ في الكلمات التي يمكن أن أقولها لك، والأعذار التي سأخبرك إيّاها لأبرّر صمتي كلّ هذا الوقت.

هل كنتُ سأخبركِ أنّي مشغولٌ عنكِ بمتابعة نشرات الأخبار في كلّ المحطّات، وبمتابعة أعداد الموتى الذين لا أسماء لهم، والقبورِ التي تزداد كلّ يوم حتى تُزاحمَ الأحياءَ والموتى على المساحات الصغيرة التي تبقّت لنا لنعيش عليها؟

ربما سأخبركِ أنّي كنتُ مشغولاً بشراء وتخزين بعض المعلّبات والدقيق، كي لا أعاني الجوعَ مرةً أخرى لثلاثة أيّام متواصلة، بعد أن نفذ الخبزُ والطعامُ في البيت خلال المعارك التي دارت الأسبوع الماضي للسيطرة على القارّة الثامنة في هذا الكوكب: قارّةٍ لا تتعدّى مساحتُها ثلاثمئة وستين كيلومترًا مربّعًا!

كيف كنتُ سأخبركِ أنّ الحياة التي كنا نَحْلم بها راحت تَصْغر حتى اختفى معناها من القاموس اليوميّ المستخدم، هذا القاموس الذي أصبحت الكلماتُ الدالّةُ على الموت فيه تتوالد كالطفيليّات، وأصبحتْ أسبابُ الموت مادّةً للتندّر؟

كيف أخبركِ أنّ الموتَ هنا أصبح أكثرَ البضائع رواجًا، ورفيقًا لنا حتى على أسرّتنا الصباحيّة التي فقدتْ دفئها؟

أتذكرين أيّام كانت هناك مساحاتٌ صغيرةٌ للحلم في حياتنا؟

كيف سأخبركِ أنني فقدتُ قدرتي على ممارسة الحلم وأصبحتُ كالآخرين في مدينتنا: ميتًا ينتظر مبرِّرًا ليتنازل عن اسمه ويحملَ رقمًا في سلسلة الأرقام الإحصائيّة في سجلات الميتين رسميّاً؟

كيف سأخبركِ أني لا أملكُ ما أقوله لك من دون أن أخجل؟

هذا الصباح كان التجوّلُ في شوارع المدينة ممكنًا بعد أسبوع من الفوضى والقلق والموت. لملمتُ ما تبقّى من جسدي، ونزلتُ إلى الشارع أتسوّل حياةً عاديّةً أصبحتْ بعيدةَ المنال. بدت الشوارعُ غريبةً لا روح فيها، والمارّةُ يعْبرون الطريقَ كالآلات المبرمجة على أداء أدوارها: غائبين في عوالمهم الداخليّة، تطلّ من عيونهم نظراتٌ لا تشي بشيء.

كان لا بدّ أن أبدو في عيون جيراني على الطاولة المقابلة رجلاً نصفَ مجنون، مثلهم تمامًا، في مدينة العقلاء هذه، مدينةٍ تحترف تقديمَ طبق الموت مجّانًا، وعلى قارعة الطريق.

صغيرتي الجميلة، ليس الموت سيّئًا إلى هذا الحدّ. فها أنا ذا أكتب لك، وها أنت تقرأين!

غزة، ٢٠١١

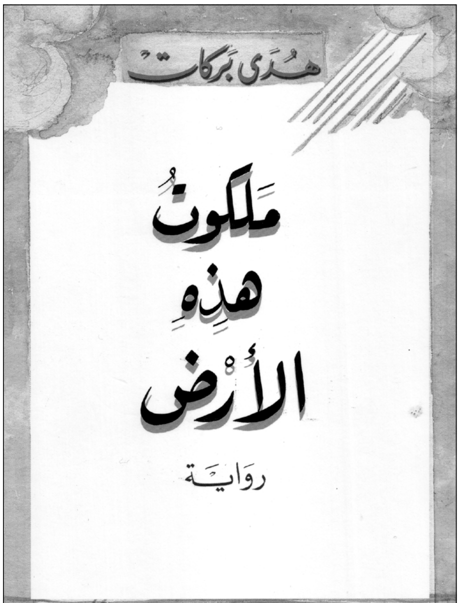

بين الخرافة السحريّة والوقائع المدوّنة بخفّة الحكاية الشعبيّة لتاريخ لبنان، تعيش شخصيّات عائلة «المزوّقيّة» في المرتفعات الشماليّة حيث يتحصّن هؤلاء الموارنة من أعدائهم الكثيرين، وحيث تمرّ الحروب على مدى قرن.

يموت المزوّق الأب برداً على قمم ضهر الجرد الثلجيّة، فيسر ابنه طنّوس بالحكاية، ثم تلتحق به أخته سلمى. بين أديرة الوادي المقدّس وسِيَر البطولات المحلِّيّة الآسرة، يختلط حبّ الموطن بغياب الوطن.

في ملكوت هذه الأرض، نقرأ عن أفراح هؤلاء الناس البسيطة وعن شظف عيشهم، عن لهوهم السعيد وأوهامهم الكثيرة، وعن حكايات الأقدار الآيلة إلى الأسى.